

من "البارك الشابّة" لـ بول فاليري رواد طريبيه

«البارك الشابّة» (La Jeune Parque) مطولة شعرية تبلغ ٥١٢ بيتاً ، قد تكون قمة ماتوصل اليه بول فاليري في عالم الشعر . انها وصيته الاخيرة أوان تراهى له ، خلال الحرب العالمية الاولى ، ان التراث الفرنسي سيغمر . فقد ارادها اذاً وداعاً منه للشعر ، وارادها تبقى - فيما لو هدرت اللغة الفرنسية بقطيبتها - شاهداً امام التاريخ على عبقرية هذه اللغة.

انها فتاة قد لاثمت بصلة الى سياتها في اسطورة الاغريق . ترمز الى وجدان الوجدان ، الى وجدان الجسد ، الى وجدان الكون بأسره . شأنها شأن « مسيو تست » و « ليونارد دي فنشي » و « فوست » و « نرسيس » : اي انها شخصية حياة فاليري العقلية . من هنا مفهومها المزدوج : مفهوم فردي ومفهوم كوني .

وهي ملحمة النفس ، بمعنى انها دائماً الى أمام . لكنها تتنكب عن السرد ، فليس ثمة حوادث بل احداث نفسية صرفة ، حتى ولو هي احياناً في شق الجسد .

. . . .

يوم عقدنا النية على نقل هذه الرائعة الى العربية لم يكن يفوتنا ما في تلك المحاولة من مجازفة تبلغ الخرق . فنقل الشعر من لغة الى لغة هو دائماً مجازفة . وكيف به اذا تصدى لتحفة التحف عند فاليري ، لهذه التي يرتفع سببكها من صفاء اللغة الى مستوى الاغراض ؟ غير ان الذي شفع بنا هو اللغة طويلة مع الشاعر ، وتخصص « بالبارك الشابّة » بالذات ، ودهشة موصولة بدونها لا يكون شعر ، ورغبة في التمرس بالصعب ، وفوق هذا جميعه حرص على ان يكون لنا بالعربية ولو ظل ، او بعض ظل ، لهذه التحفة الفرنسية العالمية .

. . . .

ليست المقاطع التي تثبتها هنا نقارى . « فالبارك الشابّة » وحدة متأسكة لا يفضل بعضها بعضاً . وان ما قصدنا اليه هو تقديم نماذج توقف القارىء على شيء من حقيقة هذا الاثر الخالد ، وعلى خطورة المطلب ووعورة السبيل . فمساننا توقفنا في نقل التنظيم نظلياً ، لا بل في نقل الجو الشعري من عبقرية لغة عقلية الى عبقرية لغة خيالية .

يا نجوماً غريبةً ذاتَ حولٍ لا يُجارى ، ولا مفرّ لرائي ،
 انا لا ادري ايّ صفوٍ رحيبٍ ، ايّ شيءٍ محجبٍ علويّ
 ترتضين انبلاجَه يتهادى في البعيد المدلل الزمني ؛
 انتِ يا من تغرقين بعنفٍ في مطاوي الانامِ حتى الدموعِ ،
 هذه الدفقة الدريّة من نورٍ تسامى ، ومن سلاحٍ منيعٍ ،
 وانطلاقاتك القصية تعدو في فجاجٍ من عمركَ الابدّي ،
 انا معك وحيدةً ، اتداعى ، قد تخلّيتُ عن سريري الطريّ ؛
 وانا اسأل الفؤاد ، على الهادية الحلوة التي تتلوّى
 تحت ناب الاعجوبة البكرِ ، حدثٌ عن بلاءٍ بناه تنكوتى ،
 ايّ جرمٍ اتيتُ ، ايّ جناحٍ جرّته الاقدار فوق جيني ؟ ...
 ... ام تُرى غصةً يخلّفها حلمٌ تلاشى في الذاهلات العيونِ ،
 عندما (عسجدُ السراج بديداً في مجالات نفخة مخمليّة)
 رحتُ اطوي مني الذراعين عمداً حول صدغيّ ، لا أحير ، رضىته ،
 في انتظار البروق من نفسي الحرى ، فيا بُعداً وراء الاماني ؟!

انا كلتي ؟ لكنّ كلني لذاتي ؛ جسدي طبعٌ لا مرناني ،
 ليس الا انتفاضة واقسي من مداه الغريب كلّ نفومٍ ،
 وانا في سلاسل اللين مني ، شدّ عمري الى دمي المحمومِ ،
 كنتُ في وعيي العميق اراني أغرقُ الطرفَ في مجاهل ذاتي ،
 اتثنّى ، وعبر لحظٍ فلحظٍ ، اسكب التبر في لفيف حياتي .
 ايّ افعى قد كنتُ اتبع ! افعى نهشني ، وغلغتُ في عروقي .



ذيلها ضمةً من الشهوات الحمر ! ... ايّ اختلاطٍ كنزٍ دفوقٍ

راح بنقدّ عن تشهّيّ عنفاً ؛ اي ظمء الى الصفاء كدير !

ايه يا حيلة ؟ ... من الالم الباقي ، على هديه ، على خيط نور ،
 انا احسست فوق جرحي ضيماً من دخول الانوار قسراً عكياً ...
 ولدت في الخؤون من خدر نفسي حمة تنفث المهالك فياً ؛
 انما السم من صنيعي ، نور في صميمي ، وفي خفي جهاتي :
 لونه في حدود عذراء غابت في عناق لذاتها ولذاته ،
 هي غيرى ... ممن ترى هي غيرى ؟ من تراه المهدد المستبد ؟
 اي صمت رحب يكلم همسا مالكي الاوحد الذي لا يصد ؟
 يا لهي ! انا بجرحي الثقيل لي اخت خفية تنوقد ،
 وعلى الأكل التنبه تعلو في فخار ، وضده تتمرد .



« اغربي ! حاجتي الى نسلك الساذج غابت في هدهدات المنام ،
 أيهذي الافعى الحبيبة ... اني في اشتياق التف حول قوامي ،
 كائناً بيعث الدوار ! وهذي العقد الوفرة التشابك تضفّر ،
 واللجاجات من امانتك الغيري تولّي الادبار مني ونحزر ،
 أرجعها اليك ... نفسي تكفي كل هذا ، يا زينة نخراب !
 هي تدري ، متبهة فوق ظلي ما عراها من غصة ومصاب ،
 كيف في حالك الليالي تشكّ الناب نهشاً في الحلو من صخر صدري ،
 فتمصّ الحليب ورداً ونهلاً ، من معين الخيال والحلم يجري ...
 اتركي ساعد اليواقيت هذا يتراخ ، فهو المهدد حباً
 حظاً روجي ... لا تقدرين تمنيّ بما دونه اشتهاً وغصبا ...
 هدّني ، سكّني اذا هذه الموجات ، واستدعي لف هذا الدوار

والوعد المدنس... فعيني في انفتاح ودهشتي في انكسار .
 انا ما كنت من تري صحاري ارجي اقل من ذا النفاس
 ينجب الفورة المهيجة والجذل : اضاءت قعورها من يباس
 مد عيني ما تقدم خطوي واعتراضي الفساد ، كي لفتاني
 من جحياتي العميقة فكراً ، تتملى حدودها اليباسات ...
 انا ادري ... بعض المزارع عياني مسرح . ليس عالم الوجدان
 من صفاء عف بحيث الحميا منه في شر كها ورفض التداني
 واندفاعاتها المشعة لا تدفع جدران قبرها الجهم دفعا
 كل شيء من انتظار طويل يستطيع الطلوع فرعاً فقرعا .
 انما الظل نفسه يسلس القيد انصياً امام بعض النزاع ،
 وتروح النفس الشحيحة مفتوحاً مداها ، في هزة واندفاع
 عند طيف المسخ الذي يتلوى دون اعتاب مدخل يتوقد ...
 أيهذا الزحاف . مهما تراءيت سريعاً ، على جوحك تعقد ،
 بالتواء طواله تتوالى هدهدات الملامسات النواعم ،
 ونفاداً للصبر يدنو ويدنو ، وارتخاء ، يا ثقل ما فيه ، جائم ،
 انت ، من انت بالقياس الى ليل طواني في سرمدي مداه ؟
 كنت ترنو الى جميل ارتخائي نائماً ، غافلاً ، تداعت قواه ...
 غير اني على اتفاق وثيق مع ما في من مخاطر تزخر ،
 انا يا صولجان باخس ، منها ، في الخيانات والتقلب ، امهر .
 اهربي مني ! تابعي من جديد دابق الخيط من سواد الرجوع !
 اذهبي في طلاب من هذه النوم ، لرقص الارداك منك الوضع ،
 جرري ، جرري فساطينك الحرى تبعاً الى سرير سيوايا ،
 احضني انت فوق افئدة اخرى جرائم ضيمها في العشايا ،
 وعلى لف حلك الحيواني ليبلهث للصبح هم النقاء ! ...

انا يقظى . ها قد نفضتُ غياباً راقص الخطو في حواشي الفناء ،
ثم اطلتُ آيةً ذُبُلَ اللونُ عليها وبللتها المآقي
غير عيني ... انا اكسرُ قبراً مستكيناً واتكي في ارتفاقٍ
مع اني سلطنة قلقي يطفو ، بحيث الاخف في الحركات
من رؤاي بين ليل وعين يستثير الزهو عبر حياتي . »

غير اني قد كنت اخشى ضياع الالم الحلو ، منة من إله !
وعلى راحتي ، من النهشة العذبة ، رويتُ ناعمات شفاهي ،
وانا كنتُ لم اعد اتملى من عديم الاحساس جسمي القديم ،
غير نارٍ توقدت فوق اطرافي بعنفٍ وغلغلت في تخومي :

الوداع الوداع ، قلتُ لهذي « الأنا » اختي ، اخت الفناء ، كذاب ...
يا « أنا » حلوة التناغم ، لا حلماً تراءت ، بل امرأة من غلاب
صلبة العود ، لدنة في الثني ، بين صمتٍ منها وفعلٍ مجرد
لا حدود ! ... أيا جبيناً نقياً ، يا خيوطاً دفقاً فدقاً تشرد ،
تمادى بعداً الى حد ان تفنى على المبهم الهواء المزغبر ،
ناعمات يشيلها طيران بعد لف في عرض يم تجبر ،
حدثي ! .. كنتُ للنهار عروساً اتجلى ، وكنتُ صنو النهار
منه ابني بالحب ركناً وحيداً للدراري في العلاء الغيراري ...

اي لمع على نواعم اهدابي تنسجتُ بتره من حجاب ،
يا ندي الاجفان جارت عليها ليلة القدر من كنوز عجاب ،
انا قد كنتُ في الدجنات منك مذهبات ، بغير هدي أصلي !
طبعات للسرمدي مسامي ، طالما خلته احتواني كلي ،

كنتُ ذاتي له اقدم جَنِيًّا مَحْمِلِيًّا يلتذ منه بنهشٍ ؛
غيرَ همسٍ ما كنتُ اسمعُ ، همسٍ يتشهى انْ لو اغيب بنعشٍ
في اللباب المشقرّ تنضجه الشمس بعيداً عن طعم نفسي المريرِ .
انا ما كنتُ للضياء اضحّي بسوى منكبي المعرّي القريرِ ؛
وعلى جيديّ المعسلِ - منشاہ الطريُّ اُكتمالُ حُسْنِ السماءِ -
كان شكلُ الدنيا يحيي فيغفو . ثم اني ، ضمن الاله الضياءِ ،
في إسارٍ شريدهً ، كنتُ اهتزُّ احتراقاً ، ادوس ارض البقاءِ ،
بين عقْدٍ وبين حلٍّ لأظلالِي تحت الكتّانِ . يا لهنائي !
كنتُ الوي ، على علو الاضاميم الجميلات ، كلَّ زهر ظليلٍ
طوعَ فسطاني المموج غنجاً ، في انخفاضات عنفوان نخيلٍ ؛
واذا ما تملّص الثوبُ حيناً من عصي العليقِ ، وانقدّ قسراً ،
ضدَّ خيط الحرية ، انتصب القوسُ بجسمي العنيف واشتدَّ وتراً ،
لافظاً صَبَوْتُ ، طليقاً معرّي تحت سترِ الوانه تتألّقُ
حيةً ، راح في نزاع عليها مع جدلِ الازهار ، عِرْفِي المنمّقُ !

« ايها الذكر ، يا وقوداً ، هواه عسجدياً يهب ملء جيني ،
انفخ الارجوان فوق قناعي لَوْنِ الرقص ايما تلوينِ
أنْ اكون انا ، وقد أشعلتُ ذاتي ، خلافاً لما مضى من حياتي ...
اقترَبْ يا دمي ، هلمَّ وحمّرْ من قديمي الوانه الشاحباتِ
انما اللازورد كان عليه يغدق التُّبَل من بعاد مهيب ،
يا دمي ، واصبغ السواسن من عهد تقضّي ، عبدته بلهبي !
ادنْ وامسحْ هذا العطاء المعفّى فوق جسمي ، هلمَّ ! كيا افاجيءُ
من جديدٍ وابغضِ الطفلة الخفراء هذي ، وذا السكون المواطىء ،

والكدير الشفاف يغطس في الغاب ويطفو ... ومن جليدي صدري
فليعود ندائه ذلك الصوت مرّناً ، فما انا كنت ادري
فيه بحاً وقد تغلف بالحب خفيئاً مثل الخفيف المهادي ...
انما الأغيد المدلل جيد في طلاب المجنح الصياد . »

أترى كان من جنان على وشك الحوار كثير قرب جناني ؟
اتراني انا ، ايا هُدُباً حلواً طويلاً ، قد كنت في حسابي
أنني في المخلف العذب مفترأ لما فيك من وعيد . سألحد ...
يا غصون الكروم ! تاهت على خدي خيوطاً رفيقة اللس تعنّد ،
ام ترى انت ... من نسيج دنان سائلات ، ومسدل الهدب حاكك ،
يا رضي الشعاع عبر مساء كسرتة سواعد تشابك !

« فلنخطّ عينا ، في الفلك الاعلى نهيان ، هيكلي المتكامل !
وليركز على قواعد ذاتي مذبح ليس في الوجود مماثل ! »

أصغر ... لا تكثر التمهّل من بعد ... فان العام الجديد الطالع
لدمي كله تنبأ بالعرشات ترى محجوبة براقع :
الجليد الممتد يترك بالرغم خريد الماسات منه الاخيرة ...
وغداً ، عند نهدة من حنايا آلهات السباح تلك المنيرة ،
يفد الطالع الربيع فيفجئ محكمات الاقفال فوق النبوع
الربيع المهيب يضحك ، يفتض البكرات ... طلسماً في الطلوع .
غير ان النقاء يرشح قطراً في كلام مرفه الدل غاوي
فيروح الحنان يمتلك الارض ، حنان في مهجة الارض ثاوي ...
مائسات الاشجار نفّخها الريّ جديداً وغلّفها البراعم
مثقلات برف اخضرها الالف وآفاقها الرحاب النواعم ،

راحت الآن ، فوق ، في مفرق الشمس ، تذرّي شعورها المرعدات
وتحتّ التصعيد في حسرة الجو بآلاف اجنح مورقات
تنددّ رياً وتزهو اخضراراً فتحس الفروع منها جديدة ...
قلّ اليست هذي الهوائية الاسماء رعشي ، في مسميك ، مودة ،
أيّ هذا الاصم ! ... ماذا ، الا تسمع في الجو اثقلته السلاسل
وتلوّى يرنج بالخشب الباقي عنيداً في رأسه المتمايل ،
هذه الدوحة الشمولة ، مع كل اله وضد كل اله
يتهادى مجدافها ، وجذوع الغاب تطفو ، علي عظيم الجباه
حاملات من شامخ الارخبيلات ، بيبر ، الى أليم الزهاب
أيها الموت ، نهر حبّ دفوق خبأته نواعم الاعشاب ؟
من مين الفانيات تصمد لا تنهد ، في وجه كل هذا الدوار ؟
من مين الفانيات ؟

— ها هي ذاتي وفرة الطهر ، غير ان قراري
يتنشّي مخاوف الركب الغزلاء ... هبّ النسيم يضني كياني
والصغير العصفور ينفذ بالصوت الى الظل حيث يعنو جتاني
صوت طفل مغيب يتعالى ... يا وروداً تشيلك نهداتي
ظافرات ، واهاً ! من الاذرع الحرّى على قفة الغوى المطبقات ...
آه ! في ثقل نخلة بين شعري ، نقطة الشهد من نهاري المريب
تمادى غوصاً الى القبله الحرّى بسكر علي ازدياد سكيب ...
أيها النور ! ... او أيها الموت ! لكن فليطر بي من منكما كان أرشقي ! ...